الجاحظ (٧٧٥ ؟ – ٨٦٩)

بقلم فؤاد افرام البستاني ، استاذ الآداب العربية في كلّية القديس يوسف

« كتب الجاحظ تعلّم العقل أوّلاً ، والادب ثانياً ! »
(ابن العميد)

٢

ولابن قتيبة صفحة لعلّها ابلغ في تبيان هذا التأثير ، واصدق في تصوير عقلية الجاحظ في كتبه وانتقاله من موضع الى آخر دون رابطة ، مع استهزائه بالامور مهما كانت عظيمة معتبرة ، نوردها كقياس لقيمة الجاحظ في الابحاث الكلامية الاسلامية . قال ابن قتيبة :

الجاحظ احسن المتكلّمين « للحجة استثارة ، واشدّهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر . ويبلغ به الاقتدار الى ان يعمل الشيء ونقيضه ، ويحتج بفضل السودان على البيضان . وتجده يحتج مرة للعثمانيّة على الرافضة ، ومرة للزيديّة على العثمانية واهل السنة ، ومرة يفضل عليّاً (رضه) ومرة يؤخره . ويقول : « قال رسول الله (صلعم) . . . » ويُتبعه : « قال الجاز . . . » وقال اسماعيل ابن غزوان . . . كذا وكذا من الفواحش . ويُجلّ رسول الله (صلعم) عن ان يذكر في كتاب ذُكرا فيه ، فكيف في ورقة او بعد سطر او سطرين . ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فاذا صار الى الردّ عليهم تجوّز في الحجة كأنه انما اراد تنبيههم على ما لا يعرفون ، وتشكيك الضعفة من المسلمين . وتجده يقصد في كتبه للمضاحك والعبث ، يريد بذلك استمالة الاحداث وشرّاب النبيذ . ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم : كذكره كبد الحوت ، وقرن الشيطان ، وذكر الحجر الاسود وانه كان ابيض فسوّده المشركون وقد كان يجب ان يبيّضه المسلمون حين أسلموا . ويذكر اشياء من احاديث اهل الكتاب في تنادم الديك والغراب ، ودفن الهدهد امه في رأسه ، وتسبيح الضفدع ، وطوق الحمامة ، واشباه هذا . . . وهو مع هذا من اكذب الأمة واوضعهم لحديث ، وانصرهم لباطل .

ومن علم، رحمك الله، ان كلامه من عمله، أقلَّ الا فيما ينفعه؛ ومن أيقن انه مسؤول عما ألف وعما كتب لم يعمل الشيء وضدّه، ولم يستفرغ مجهوده في تثبيت الباطل عنده. وانشدني الرياشي

ولا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة ان تراه . » (١

في الاجتماع والاخلاق

لم يدرس الجاحظ الفلسفة رغبةً في المناقشات المنطقية العقيمة، ولم يصطنع علم الكلام توصّلاً الى فرض النظريّات في منشأ العوالم، وعلاقــات الخلائق بالخالق. ولكنه كان فضولياً، والفضولية في العلم شرط اساسي، فأحبّ ان يطّلع على آراء المفكرين، فاطّلع عليهــا وعرضها على ما نعرفه فيه من حبّ المحادثات الطويلة، وخلط الجدّ بالهزل. فاتجهت افكاره الى درس المذاهب الدينية والفلسفية فدرسها، وتوسّع فيها حتى انتج منها لنفسه مذهباً خاصاً كما رأينا.

وكان من حكم الطبع ان يتدرّج من ذلك المــذهب النظري الى تطبيق آرائه على المجتمع، واجلى مظهر فيه الامامة. فكان الجاحظ في هذا البحث ايضاً هو في الجهات السابقــة. اي يدرس كل شيء، ويفهم مزاعم الاحزاب المختلفة فيبسطها بكل صراحة، منتصراً تارة للعثمانية مثلاً، وطوراً لاعدائهم، حيناً يقرّ إمامة بني امية وحيناً يفضّل عليهم بني العباس. كذلك كان موقفــه في المناظرات بين النصارى، والمسلمين واليهود كما اوردناه قبيل هذا. وهو في كل ذلك لا يظهر اعتقاده الخاصّ بل يكتب « تماجناً وتطرّباً » (٢

على انه كان يرى في تلك المدنية الزاهرة فضلًا لغير العرب ايضاً، ولم يكن ليبخس الموالي حقّهم، ولهذا انتقده البغدادي(٣. وكان للجاحظ الفضل السابق في تقدير الاتراك حقّ قدرهم في العصر العبّاسي الاول. وما رسالته في فضائل الترك الّا استحســاناً لفكرة ادخالهم في الامامة الإسلامية، ونبوءة تحقّقت عن مصير ذاك

١) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، ص: ٧١ – ٧٢
٢) المسعودي: مروج الذهب، الجزء ٦، ص: ٥٦
٣) البغدادي: الفرق بين الفرق: ص: ١٦٣

العنصر المهم في العصور التالية

هذا ما يخصّ الشعوب . اما اخلاق الافراد فدرسها الجاحظ درساً دقيقاً، وكان له من فكاهته معاون على تصويرها فصوّرها بنقائصها، وتهكّم فابدع في ذلك. ولعلّه كان اوّل كاتب عربي انتقد طبقات المجتمع ، والجماعات من الناس، فادخل في آدابنا ذلك الفنّ الشائق براعته واذعه ، المفيد بما يدفع اليه من الاصلاح ، المعروف بدرس الاخلاق. فاظهر حيل التجار في « غش الصناعات »، وخزعبلات المتسوّلين في « حيل المكدين »، وسخافات الشبان المتخنثين ، واخلاق المغنين والعبيد والموالي من ذكور واناث ، في كتب « الفتيان » و « الجواري والغلمان » ، و « المغنين »، و « القيان » . ولم تفته اخلاق النساء وحياتهنّ فخصّ بهنّ كتاباً . على ان افضل روائعه في هذا النوع ، « كتاب البخلاء » الذي خلّد صفارة تلك الفئة من اهل البصرة ، مدى الاجيال ؛ وما ارشق قلم الجاحظ في تمزيق استار عن تكالب اولئك « المتصدين »

في العلوم : كتاب الحيوان

ان رغبة الجاحظ في الاحاطة بالمعلومات جميعها ، وعقليته الشاملة التي تكسبه بجدارة صفة اصحاب الموسوعات ، دفعتاه الى الكتابة في كل المعارف البشرية . فخاض شتى الابحر ولم يتراجع امام موضوع سواء اتقنه او لم يتقنه . وكان كلما ازداد سعة نقص تعمقاً حتى عرّض نفسه لنقد الاختصاصيين . ومنهم المسعودي الذي كثيراً ما استفاد من الجاحظ ؛ ومع ذلك فانه لم يتمالك من نقد معلوماته الجغرافية ، وهو علم لم يتقنه كاتبنا ، لانه « لم يسلك البحار ، ولا اكثر الاسفار ، ولا تقرّا المسالك والامصار » (١ فوقع في مغالط عديدة . وكان من افكهها ، وهي حقيقة بالجاحظ وبعقليته ، انه قرّر ان نهر مهران السند (اي الهندروس) مصدره نيل مصر ، واستدلّ على ذلك بوجود التماسيح فيه ... الى غير ذلك من التحقيقات السطحية التي اشتهر بها الجاحظ

على انه ، وان قصّر في وصف البلاد الجغرافي ، لم يقصّر في وصف المدن

١) المسعودي : مروج الذهب - الجزء الاول - ص: ٢٠٦ - ٢٠٧

الكبيرة ، واهلها ، وطريقة معيشتهم ؛ ككلامه ، في كتاب البلدان ، عن مكة ، والمدينة ، ومصر ، والكوفة ، والبصرة ، ودمشق وغيرها

وقد ألحق بذلك مباحث في الفرق بين الشعوب المختلفة ، لا من حيث الاخلاق فحسب كما ذكرناه ، بل ايضاً من حيث النشأة الطبيعية والفوارق الظاهرة ، فألف في « السودان والحُمران » و « الصرحاء والهجناء » و « الرجال والنساء » وفي ايّ موضع يفلبنَ ويفضلنَ وفي اي موضع يكنَّ المغلوبات والمفضولات ... وكان من متممات الجغرافية البشرية ان يبحث في معتقدات البشر ، فذكر الاديان وتشعّباتها ، والهياكل وما يُعبد فيها من الآلهة المختلفة على شكل الاوثان والاصنام والدُمى في شرح طويل .

وتجاوز درس الارض ، من حيث الجغرافية الطبيعية والبشرية ، الى درس المحصولات ، من حيث الجغرافية الاقتصادية ؛ فكتب في المعادن المديدة ، وجواهر الارض واصباغها ، والكيمياء وما اليها . ثم ارتقى الى النبات فتكلّم عن النخل والزيتون والاعناب ومختلف الزرع . وكان من الطبيعي ان يصل الى الحيوان ، فذكره وخصّ به ذاك الكتاب الكبير الطريف . ولما كان اوّل كتاب من نوعه في الآداب العربية ، وقلّ من درسه واكثرث له ، على ان مريدي سائر كتب الجاحظ كثيرون ، رأينا ان نخصّه بدرس مفصل فنستفيد منه الشيء الكثير عن مبلغ العلم في عصر الجاحظ ، وعن عقلية الكاتب ، وطريقته في التأليف :

كتاب الحيوان

ماهيته — طبعه

كتاب الحيوان مجموعة كبيرة انشأها الجاحظ في سبعة مجلّدات واهداها الى محمّد بن الزيّات . وغايته جمع ما تفرّق في الكتب ، وما انتشر على الألسنة من الاقوال والأحكام والامثال والاشعار عن الحيوانات وعلاقاتها مع الانسان . وقد طُبع الكتاب كله في سبعة اجزاء تبلغ ١٠٨٩ صفحة كبيرة ، في مصر سنة ١٣٢٣—١٣٢٥هـ . (١٩٠٥—١٩٠٧) على نفقة الحاج محمد الساسي المغربي ، ووقف على تصحيح الجزءين الاخيرين محمد بدر الدين النعساني الحلبي . على ان في هذه

الطبعة من التصحيف ، والتحريف ، والإسقاط ، وعدم اقامة وزن الابيات ، والاغلاط المطبعية ، وإبدال الاسطر ، ما يقف في سبيل الدارسين عقبة كؤودًا يزيدها صعوبةً أنّ الجاحظ لا يأبه للترتيب والتقسيم ، ولا يتكلّف ، كما في سائر مؤلفاته ، كتابة عناوين للابحاث والفصول ؛ اللهمّ بعض العناوين العامّة للابواب الشاملة . وهذه ايضاً لا يراها المطالع الا في اول الكلام ، وكثيرًا ما لا تنطبق على الباب برمّته . وقد اخذنا مته بعض المنتخبات فنشرناها في الروائع (الاجزاء: ١٨ و ١٩ و ٢٠) ولكي لا نحرم القارئ الكريم الاطّلاع على محتويات سائر الاجزاء نلخّص ادناه المجلّدات السبعة ، بعد ان نذكر مصادر الكتاب ، راجين ان يقوم من يعيد النظر في هذا المؤلف ويعرضه على النسخ الخطية ، ثم يطبعه طبعة جديدة علمية نقديّة فيؤدي خدمة عظيمة للجاحظ والآداب العربية

مصادره

كثيرًا ما يذكر الجاحظ في كتابه ارسطو ، ويستند الى اقواله في الحيوانات حتى اتّهمه بعض اعدائه بالنقل ، فقال البغدادي : « وقد سلخ فيه معاني كتاب الحيوان لارسطاطاليس . » (١ على ان من يدرس الكتاب حقّ الدرس يعجب اذ يرى ضعف التأثير اليوناني فيه ، ولاسيما تأثير ارسطو ، ويتحقق ان كثيرًا من تلك المنسوبات لارسطو هي مرويات إمّا ان يكون رآها الجاحظ في كتب منحولة للفيلسوف الكبير ، واما ان يكون ألّفها من عنده ونسبها الى غيره ، ليجعل لها قيمة القِدَم وقيمة الاجنبيّة ، جريًا على ما هو معروف من عادته في ذلك

وهناك مصادر عديدة للكتاب اخصّها ما وَرد في القرآن والحديث عن الحيوانات التي يذكرها ، وما جمعه الادباء والرواة قبله من حِكَم العرب وأشعارها في منافع الحيوان وصلته بالانسان . ويجب ألّا ننسى ملاحظات الجاحظ الخاصة وآراءه الشخصية ، وهي تؤلّف قسمًا لا يُستهان به من حيث الدقة في الفراسة ، والإصابة في الأحكام

اقسامه

من العبث ان يحاول المطالع ايجاد تقسيم مرتّب ، معقول ، لكتاب الحيوان .

١) راجع الروائع : الجزء ١٨ ، ص : ك .

وهو أمر لا نستغربه بعد ان عرفنا عقليـة الجاحظ . اما من حيث الظاهر فيبدو الكتاب مقسماً كما يلي :

الجزء الاول

فيه ١٩٦ صفحة ، يبدأها الكاتب بمقدمة طويلة ، يرد في اولها على من انتقد كتبه السابقة . وهي ذات قيمة لانها تطلعنا على القسم الكبير من مؤلفات الجاحظ قبل كتاب الحيوان . ثم ينتقل الى ذكر منفعة الكتب على الجملة . فيأتي بتلك المعلومات الزاخرة، والآراء القيمة في الخط والشعر والآثار(١ . ثم يعرض ملحوظات عامة عن الانسان والحيوان ، ويبدأ القسم الاكبر من كتابه اي المناظرة بين الديك والكلب

الجزء الثاني

فيه ١٣٥ صفحة ، يخصها المؤلف بمتابعة تلك المناظرة ، ويخللها باحاديث وحكايات وحوادث غريبة عجيبة عن كثير من الحيوانات والطيور

الجزء الثالث

فيه ١٦٨ صفحة، نحو القسمين منها مخصصة لذكر الحمام يتخللها وصف من يشتهر بصدق الظن، والمديح بالجمال ، والنذب والجنون ، والفطن والفهم ، وخصال الحرم . ثم يفرد الكاتب باباً للذبان(٢ ، وباباً للغربان ثم للجعلان ، والخنافس ، والهدهد ، والرخم ، والخفاش

الجزء الرابع

فيه١٥٦صفحة ، يبحث في اكثرها عن الذر(٢ والقرد ، والخنزير ، والحيات(٣ والظليم . ثم يبدأ البحث في « النيران وانواعها عند العرب والعجم وفي الديانات وغيرها . »

الجزء الخامس

فيه ١٧٥ صفحة . يتابع في اوله الكلام عن النيران ثم ينتقل الى شرح الآية

١) نشرنا منتخبات وافية من هذا الباب في الروائع (الجزء : ١٨)

٢) يرى المطالع منتخبات من باب الذبان والذر في الروائع (الجزء: ٢٠)

٣) يرى المطالع منتخبات من باب الحيات في الروائع (الجزء : ١٩)

في « الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً » . ثم يذكر الالوان واختلافها ، والماء ومفعوله ، ثم يعود الى الحيوان . وبعد ذلك يفرد باباً لمدح « النصارى ، واليهود ، والمجوس ، والأنذال ، وصغار الناس » ولذمّ الأمانى . وكأنه يشعر انه لم يذكر شيئاً عن «الحيوان» فيعوّض عن سكوته ويخصّص ما بقي للكلام عن اجناس الطير التي تألف دور الناس ، وعن الفار ، والجرذان ، والسنانير ، والعقارب ويستطرد الى ذكر « فضيلة السنور على جميع اصناف الحيوان ما خلا الانسان . » ثم يذكر الحيوانات الآتية : القمل ، الصؤاب ، البقّ والجرجس وما شاكل ، العنكبوت ، النحل ، القراد ، الحبارى ، الضأن والمعز ، الضفادع . وبعد ان يحدّد الفرق بين الانسان والبهيمة ، والانسان والسبع ، يكتب فصلاً في القطا . ويختم بذكر نوادر وأشعار واحاديث

الجزء السادس

فيه ١٧٥ صفحة . يلخّص في اوله كلّ ما ورد في الاجزاء السابقة . ثم يتكلّم عن الضبّ وصفاته ، ويبدأ بتفسير قصيدة البهراني في الحيوانات ، وقصيدة بشر بن المعمر في الموضوع نفسه تفسيراً يجاوز الثمانين صفحة يذكر في خلاله من ادّعى من الشعراء انهم رأوا الغيلان وسمعوا عزيف الجن . وبعد ان يبحث قليلاً في الارانب ، يورد اشعاراً كثيرة في السباع والوحش والحشرات ، وينتقل الى ذكر الثأر عند العرب ، والجن ، ووهل الجبان ، ثم يتكلم عن الوَرَل والفهد . ويختم بنوادر واشعار واحاديث

الجزء السابع

هو اصغر الاجزاء وفيه ٨٤ صفحة . يبدأها باحساس اجناس الحيوان ، وبالامثال الواردة في ذلك . ثم يؤيد نظريته العامّة وهي « ما يستدلّ به في شأن الحيوان على حسن وضع الله واحكامه وتدابيره . » وينهي بذكر ذوات الظلف ، والزرافة

غرضه — قيمته

على المطالع ان يستنتج من هذه الاخلاط اي عبث كان يدفع الجاحظ الى الانتقال من موضوع الى آخر ، ومن حكم الى شعر ، ومن آية قرآنية الى نادرة مضحكة .

ويقرن هذا الى مفاعيل تلك الذاكرة الغريبة ، وتلك التنشئة الادبية المتينة ، وذاك الاسلوب الانشائي الشائق ، فيعلم مبلغ الكتاب من اللذّة والفائدة . من اللذّة اولًا لان الجاحظ لم يكتب قط ليفيد بل ليسلّي . واذا كان ثمّ فائدة فانهـا تأتي عن طريق اللذة ، واكاد اقول عن غير قصد من المؤلف

على ان ذاك العبث بالتأليف ، والاختلاط في الافكار ، لم يكن ليمنع الجاحظ من غاية يسير اليها ، وغرض يرمي اليه في كتاب الحيوان خاصةً . ونحن اذا ما تدبّرنا بالروية اكثر فصوله ، رأينا اجتهاداً متواصلًا في تبيان قدرة الخالق عزّ وجلّ ، وفي البرهان على ان الحيوانات الضخمة لا تفوق الحشرات الصغيرة في الدلالة على حسن صنع مسيّر هذا الفلك واحكامه وتدابيره . فهو ينال من هذا القبيل شيئاً لا يُستهان به من الفلسفة الكلامية ، وشرح عجائب المخلوقات . وفضلًا عن ذلك فان المطالع يرى في تضاعيف هذه المجلدات مبادئ اولية بسيطة دون شك ، ولكنها حقيقية ، لكثير من النظريات العصرية عن ترقي الحيوانات ، وتبليدها اي قبولها لمناخ الاقليم الموجودة فيه ، ودرس اخلاقها وعلاقاتها مع البشر خاصةً . بيد ان حبّ الحقيقـة يوقفنا هنـا ، ويمنعنا عن التهوّر والاندفاع الى القول ان الجاحظ كان من سلفاء علماء الحيوان المشهورين في القرن التـاسع عشر ، كما اراد بعض المتحمسين ان يصفوه ، فنسبوا اليه ما هو براء منه ، وحطّوا من معارفهم في العلم والادب

الكاتب

ان كان المراد بالكاتب من اذا شاء طرْق موضوع ، فكّر فيه طويـلًا فاختطّ لنفسه غايةً واضحة ، ورسم نقسيـاً جليًّا متسلسلًا ، ثم سار عليه مرتقياً من فكر الى آخر ، ومنتقلًا من مقدّمة الى نتيجة ، لا يحيد عن التقسيم ، ولا يتعدّى الغاية ؟ فقد خسر الجاحظ دعواه واضاع لقب « الكاتب » . وان كان المراد بالكاتب المُنشئ المتضلع من اللغة ، العارف بمواقع مفرداتها ، الحافظ تراكيبها المدرسيـة ، مَن اذا رغب في التعبير عن فكر عادي ، اخذ يرصف الالفاظ فيحذف ، ويقدّم ، ويؤخر ، وينمّق ، حتى يضحّي المعنى في سبيل اللفظ فيُبرز جملةً متينة السبك ، موجزة الكلام ، موسيقية الوقع ، وان جافـة فارغة ، فقد خسر الجاحظ دعواه

ثانيةً وكان ابعد من ذي قبل عن صفة « الكاتب »

اما اذا اردنا بالكاتب ذاك المؤلف الذي يجبرك على مطالعته ، ويجذبك الى مجالسته ، والاصغاء اليه ، ولو حدّثك عن اتفه الامور وابسط المواضيع ، فليهنأ الجاحظ بلقبه وليتبوّأ عرش الآداب في مقدمة كتاب العربية

لا عبرة بكل ما في انشاء الجاحظ من مراجعات معاني ، وترديد ألفاظ ، وخلط في الاقسام ، وخروج عن الموضوع ، ما دمنا حدّدنا المراد بالكتابة ، اذا ما تكلّمنا عن الجاحظ . ولا عبرة ايضاً بما في تعابيره من الجدّة والخروج عن الاساليب الموجزة المتينة . وهو لو بقي متّبعاً اياها لما وصلت الجملة العربية الى تلك السهولة والمرونة واحتواء المعاني الدقيقة التي اوصلها اليها الجاحظ

هذا فضلاً عن النكاهة الفطرية التي اشرنا اليها غير مرّة في هذا البحث ، والتي وسمت كل انشاء الجاحظ بتلك السمة الخاصة فرفعته عن الانشاء المدرسي المعروف في جملة ابن المقفع وسهل بن هارون ، دون ان تحطّه عنهما من حيث البلاغة ودقّة التعبير

واي شيء ادلّ على روحه الخفيفة وظرفه الجذّاب من تلك الانتقالات السريعة من الجدّ الى الهزل ، او بالعكس ؛ والاستنتاجات غير المنتظرة في موضع يعدّه المطالع مهمًّا فيعرضه له الكاتب قابلًا لكثير من الدعابة والعبث . فهو بينا يظهر محدّداً تحديداً علميًّا ما يُعتبر طيراً وما ليس بطير فيقول : «وليس كل ما طار بجناحين فهو من الطير . قد يطير الجعلان ، والذباب ، والزنابير . . . وغير ذلك ولا يسمّى بالطير . . . » ، اذا به لا يتمالك من ايراد النكتة فيردف : « وجعفر بن ابي طالب ذو جناحين يطير بهما في الجنّة حيث شاء ، وليس جعفر من الطير . . . » ثم يعود الى الرزانة العلمية فيتابع : « واسم طائر يقع على ثلاثة اشياء : صورة ، وطبيعة ، وجناح » . ولا يكاد يذكر النسور وشبهه بالاسد ، حتى يجتهد في شرح اصل هذه المشابهة ، فلا يخطر على باله الا خرافة مضحكة ، لا يتردّد دقيقة في ذكرها واسنادها الى المفسّرين ، فيقول : « زعم بعض المفسّرين واصحاب الاخبار ان اهل سفينة نوح كانوا تأذّوا بالفار . فمطس الاسد عطسةً فرمى من منخريه بزوج سنانير ، فلذلك النسور اشبه شيء بالاسد . وسلح الفيل زوج خنازير ، فلذلك الخنزير أشبه شيء

بالفيل.» ولا يكتفي بهذا حتى يشرح تلك الحادثة عن لسان كيسان، ومن المعلوم المشهور مجون كيسان ودعابته، فيُردف: « قال كيسان: فينبغي ان يكون ذلك السنور آدم السنانير وتلك السنورة حواءها.» الى آخر ذلك من النكت وهي وافرة لا تخلو منها صفحة من كتبه جميعها

وقد يرافقه هذا الروح الهزلي في تصوير الاخلاق فيسمو به الى الابداع كما في كتاب « البخلاء »؛ واني لواثق انه لو عرف العرب فن التمثيل في ذلك العصر، لما كان الجاحظ في «بخلائه» اقلّ دهاء في اختيار المشاهد، ودقّة في التصوير، وفكاهة في التعبير من موليير في « بخيله »

واذا اضفنا الى ذلك تعقّل كاتبنا ورزانته عند اللزوم، وقريحته السيّالة، وتقاطر الالفاظ الموافقة، عفواً، من شقّ قلمه، مع التوازن في الجملة الذي اكتسبه من استاذه في الانشاء الادبي ابن المقفع، ادركنا سرّ ذلك النفوذ الذي ناله، وعمق ذلك التأثير البعيد الذي احدثه في الاسلوب العربي مدة طويلة. على اننا نأسف جدّ الاسف ان يكون ادباء القرن التاسع عشر نسوا او كادوا مركز الجاحظ في الآداب، وقدّموا عليه كثيراً من الكتّاب غير المستحقّين. ولعلّ عذرهم في ذلك ان كتب اديبنا لم تكن مطبوعة معروفة. اما اليوم وقد طُبع الشيء الكافي منها، فقد آن للجاحظ ان يسترجع مكانته العالية، وان يُعدّ بحق إمام الانشاء العربي

هكذا يجب ان نقدر الجاحظ! وهكذا قدره كبار الادباء في العصور العباسية كما يظهر في حكم ابن العميد الذي صدّرنا به هذا الدرس والذي نحن به خاتمونه:

قال ابو القاسم السيرافي: حضرنا مجلس الاستاذ ابي الفضل بن العميد الوزير. فجرى ذكر الجاحظ فغضّ منه بعض الحاضرين وازرى به، وسكت الوزير عنه. فلما خرج الرجل قلت له: «سكتّ ايها الاستاذ عن هذا الرجل في قوله، مع عادتك في الردّ على امثاله.» فقال: « لم اجد في مقابلته ابلغ من تركه على جهله. ولو واقفته وبيّنت له، لنظر في كتبه وصار بذلك انساناً، يا ابا القاسم، فكتب الجاحظ تعلّم العقل اولاً والادب ثانياً. ولم استصلحه لذلك » (١

١) ابن خلكان: وفيات الاعيان: ج ١: ص: ٤٩١ — وياقوت: ارشاد الاريب: ج ٦: ص: ٧٤